صلاة ... لأرض الثورة !

في الشهر الماضي ، زار الشاعر الجزائري مالك حداد عددا من البلاد العربية والقى عدة محاضرات بالفرنسية عن الجزائر و «مأساة» الاديب الجزائري .

وقد لقي الشاعر في حلب الشاعر العربي الاستاذ سليمان العيسى ، فكان من اثر هذا اللقاء ان تدفقت شاعرية الاستاذ العيسى بديوان كامل يصدر قريبا (١) بعنوان « صلاة لارض الثورة » .

وننشر فيما يلي المقدمة التي كتبتها ملك ابيض العيسى ، زوجة الشاعر العربي ، لهذا الديوان وهي تتحدث فيها عن ذلك اللقاء العميق بين الشاعرين ، فتلقي ضوءا كاشفا على المجموعة الشعرية التي نقتطف منها بعد ذلك القصائد الثلاث الاولى .

★

مقدمة

بقلم : ملك ابيض العيسى

لقد شهدت ذلك اللقاء .. كان ذلك في بيتنا ..

انه اللقاء الاول بين سليمان ، ومالك حداد .

كان مالك يطوف المشرق العربي للمرة الاولى في قناع خادع ، زوقته يد فرنسا الصناع ، فاتقنت تزويقه .

وكان سليمان في عزلة قاسية ، يعيد الماضي ويسترجع الذكريات، فلا يخرج منها الا بيأس مرير ، وخيبة قاتلة ..

وتلاقت عيونهما .. وتصافحت الايدي ، وسرعان ما سقط القناع المتقن ، وتجلى لنا الوافد من فرنسا ، الذي يتكلم لغتها باللهجة الباريسية الاصيلة ، فارسا من فرسان الصحراء يعقد حول عنقه برنسا احمر قشيبا لا تخطئه العين ..

ان الزيف لباطل ...

ذاك هو مالك حداد احد ادباء الجزائر وشعرائها المعاصرين الناطقين بالفرنسية ، كاتب روايتي «ساهديك غزالة» .و «الانطباعات الاخيرة » .... وشاعر « الشقاء في خطر » .

لقد التقى باخوانه ابناء الاقليم الشمالي في دمشق وحلب ، وتحدث اليهم عن المعجزة الجزائرية ، وعن دور الادباء الشباب فيها . فكان اخوانه ـ وجلهم لا يجيد الفرنسية ـ يصغون اليه بكل جوارحهم ..

كانوا يقرأون كلماته في عبارات وجهه ، ويقاطعونه بالتصفيق والهتاف . فلا يملك الا ان تخضل عيناه بالدموع ، ويعلق قائلا : ان مأساتي تتجلى لي الان بشكل اعمق . اني اقف بينكم عيا لا اعرف كيف نتفاهم ! ..

لقد ذاق ابن قسنطينة التشرد والغربة منذ كان طفلا ... وشرد اطفاله الثلاثة من بعده . ولكن غربته هذه تهون اذا ما قيست بغربته الثانية ، بمنفاه الثاني ـ كما يسميه ـ .. انه اللغة الفرنسية ، وسيلته الوحيدة للتعبير عن نفسه .. عن كل ما يضطرم في صدره من شعر ، وحب ، وثورة ، وغضب ..

ان مالك حداد ، ورفاقه كاتب ياسين ، ومحمد ديب ، ومولود فرعون ، ومولود معمري .. الناطقين بالفرنسية ، يعيشون في منفى هذه اللغة . فما ان تنطلق بها حناجرهم ، ما ان يسيل بها مدادهم حتى يحسوا الزيف في كل ما يقولون .

ويشاء القدر ان يحمل هؤلاء الادباء الشباب المسؤولية الخطيرة ، والرسالة الضخمة ، مسؤولية التعبير عن آلام الجزائر وآمالها ، وثورتها المعجزة . التي لم تكد تهدأ منذ وطئت اقدام الاستعمار البغيض هذه الارض الطيبة .. منذ مائة وثلاثين عاما .

لقد عملت فرنسا بكل ما أوتيت من قوة على ان تقتلع الجذور العربية من ارض الجزائر .. وتزوير كل شيء فيها حتى التراب (١) ... وبدأت باللغة ..

شنتها حربا ضروسا على اللغة العربية ، فحرمتها على كل شفة ولسان ، وقاتلتها حتى في الكتاتيب . وفرضت اللغة الفرنسية فرضا على كل جزائري ..

ويعتذر مالك لصديقه : « لا تلمني يا صديقي اذا لم يطربك نشيدي ، لقد شاء لي الاستعمار ان احمل اللكنة في لساني .. ان اكون معقود اللسان .. لو كنت اعرف الغناء .. لتكلمت العربية ».

ويهز ابن انطاكية راسه ..

ويطرق في الم عميق ..

انه يدرك المأساة .. لقد عاش طرفا منها ، ولكنه يحس بكل ابعادها ..

لقد فر هو الاخر من منفى الجنسية التركية ، ومن منفى اللغة التركية ..

لقد اجتازا لحدود وهو طفل في العاشرة . . واجتاز معها داره ، وبستانه ، واهله ..

واذا كانت ابنته الصغيرة بادية التي انست بالشاعر الجزائري ، فقفزت على ركبتيه ، تسأله عن طفلتيه الجميلتين ، تتلعثم بكلمات عربية ناعمة يهتز لها المشردان .. فان سائر ابناء اللواء يعيشون الان تلك المأساة .. ولكن حداثة سنهم لم تتح لهم ان يفتحوا عليها اعينهم بعد ..

ان مالك يتحدث باسم غرباء العربية .. باسمهم جميعا .. ضحايا الفرنسية ، وضحايا التركية . افيكون غريبا بعد هذا ان ينطلق سليمان من هذا اللقاء الخاطف .. فيكتب مجموعته الجديرة هذه في خمسة عشر يوما لا غير ؟..

وبعد.. فاذا كان سليمان قد فتح عينيه على الحقيقة يوم اغتصاب وطنه الصغير ، يوم سلخ اللواء عن الوطن الام ، واهدائه لتركيا .. والتزم منذ ذلك الحين الثورة طريقا للخلاص في كل ما قال .. فان مالك حداد يجيبك ببساطة حين تسأله عن تاريخ ولادته :

ـ لقد ولدت في ٨ ايار ١٩٤٥ . ايحتاج هذا التاريخ الى تعريف ؟

ثم لا يرى في حياته قبل هذا اليوم شيئا ..

لقد التزم مالك ايضا منذ ٨ ايار ، يوم الدمع والدم في الجزائر ، طريق الثورة .. وصعد فيه جنبا الى جنب مع رفاقه حملة السلاح .. يحققون وجودهم العزيز ، ويعطون للحرية ، للكرامة الانسانية معناهما الاصيل .

انه يلتقي مع سليمان في الطريق ..

انه يحدد رسالته ، ورسالة الشاعر العربي الذي يحمل المأساة في صدره حين يقول في مقدمة ديوانه ، مخاطبا صديقه :

.. « انت تكتب لانك تحب .. واذا لم يكن لديك ما تحبه فاطرح قلمك ..

باقدامك ، اقدام الجندي ، اقدام الشاعر الجوال ستخط طرقا جديدة ، ستخط دروبا معطرة بالاساطير .

انك لربان طائرة تطير على طريقتك .. اني احذرك . لن يكون لك محطات استراحة تلتقط فيها انفاسك . ستطير حتى ساعة وصيتك .. ولن تكترث بذلك .. لانك شاعر .

(١) عن دار العلم للملايين في بيروت .

(١) سميت الجزائر : التراب الفرنسي .

يجب ان نقتل الليـل .. يجب ان نقتله ... لتنبثق الحياة من ورائه .. »

بلى.. يا شاعرة الثورة .. يجب ان نقتل الليل ..
يجب ان نقتله .. لتنبثق الحياة من ورائه .. للجزائر ،
للامة العربية ..
للانسانية جمعاء .

حلب — ملـك ابيض

تخضر زهره

نحن يا مالك جرح .
قريتي (١) مثل قسنطينة جرح ،
ابدا في دمنا منه اعاصير ، ولفح ،
ابدا يصرخ في اعماق أرضي
قوته نبضك في النزع ، ونبضي ،
يقظتي فيه احتراقات ، وغمضي
ابدا أطعمه يأسي ، واشعاري ، وناري .
ابدا أسقيه ثاري ،
واغذيه دماري ،
واغني ابدا للريح ،الموت ، انتصاري ،
يا صديقي ، نحن في التاريخ جرح
في قسنطينة منه ، وبقلبي منه لفح
جارف كالنار ، كالسيل ،
كهمس الفجر ، سمح .
أغمض الجفن على تمزيقه جفني ، واصحوا ،
ابدا نزدرد البيداء ، والبيد سراب .
ابدا نقرع صدر الليل ..
والصمت الجواب ..
عل روحـا عربيه
مـن وراء الابدية
من صحارانا القصيه
تتلقى همسة من جرحنا الدامي ، وقطره ..
وعلى الدرب ،
على أشلائنا ،
تخضر زهره !

على الجمر

ايها اللحن المشرد !
أيها الباحث عبر الموت عن انقاض فرقد ..
بددا ضعنا على شط الدنى يوم تبدد
يا ربيعا من ضلوع البؤس ، والمحنة ، يولد ..
من ينابيع الدم المسفوح في كل حنيه
مـن ثرانا العربيه ..
يا رفيقي
يا مـن اختار على الجمر ،
كما اخترت ، طريقي
أي انشودة حب في دمائي !
ولدت مجنونة العصف ، جريح الكبرياء !
عندما شدت على كفي يمين
تحمل السبع السنين (٢)
ثورة دقت قيودي
غضبة أعطت وجودي
ووجود العرب

(١) قرية الشاعر ، قرب انطاكية .
(٢) دخلت ثورة الجزائر عامها السابع

ضوءه ، معناه ، عبر الحقب ..
يا رفيقي ..
يادما كالنار يجري في عروقي
قبل ان يلتقي النبضان في أعصار ساحه
ويذيب الثأر في الثأر جراحه ..
قبل ان تنزل داري
لحظات من نهار
كابتسامات الصغار
كاندفاع الموجة الخضراء من قلب البحار ..
قبل ان تنهد في كفي يمين
تحمل السبع السنين
ثورة دقت قيودي
غضبة ..
اعطت وجودي
ووجـود العرب
ضوءه ،
معناه ،
عبر الحقب ..

المنفى المرير

في لهاة النسر غصة (٣)
في حنايا البلبل المطعون غصه
لاتثرها ..
لا ترددها عليا ..
انها في شفتيا
منذ فتحت على المحنة هدبي
مذ حملت اللهب المجنون في اعماق قلبي .
يا صديقي ..
انا ادري اني مأساة رهيبه !
غربت لحنك عني ، فهو آهات خضيبه
أيها النسر المهيض
انه المنفى البغيض (٤)
بيننا سور من الصمت رهيب ..
انه الحرف الغريب ..
كلما هم جناحاك بضربه
وقفت صخرة غربه
فاذا اللفظة زفره
تحرق الشاعر في الصمت ، وشعره ..
لاتثرها .. انابطال الجزائر
باللظى يمحونها ،
بالدم ،
أبطال الجزائر ..
عبثا .. يقصيك عن اهلك سور
شاده الظلم ، وحرف هو منفاك المرير
لغة الثورة صبتك نشيدا عربيا
شع في العينين تصميما ،
ووقدا في المحيا ..
لغة الثورة .. فاملأ مسمع الزهو دويا
انت حي .. ماتمطى الفجر في (أوراس) حيا ..

سليمان العيسى

(٣) كان الشاعر الجزائري يتكلم اللغة الفرنسية
(٤) كان الشاعر ما يفتا يردد بالم : اللغةالفرنسية هي منفاي الذي قـدر علي ان اعيش فيه .